انتشر الخبرُ في المدينة المنورة. لقد نقضتْ قريشٌ العهد، وفَجَرت في اليمين، فأعانتْ حليفَها على حليفِ رسول الله ﷺ أعانت بكراً على خُزاعة !

انتشر كذلك خبرُ استنجاد عمرو بن سالمِ الخُزاعي برسول الله ﷺ، واستجابةِ الرسول له؛ فشاع البشر وعمّ السرور في أوساط المسلمين، الذين كانوا ينتظرون على أحرَّ من الجمر الساعة التي يُصَفُّون فيها حسابهم مع المشركين. . .

وعَلِمَ بلالُ بن رباحٍ مؤذنُ الرسول عليه السلام أنّ المسلمين زاحفون إلى مكة. . . مكة التي خَرَجوا منها هاربين بدينهم، مخلِّفين وراءهم الأهلَ والمال والذكريات، فطار النومُ من عينيه، وتسمَّرتْ أمامهما مشاهدُ مرابعِ البيت لا تغيب عن ناظريه في ليل أو نهار، وتمنّى على الأرض أن تُطوى أمام جيش المسلمين فَيَبْلُغَ مكةَ في ساعةٍ أو أقلَّ من ذلك، فقد بَرَّحَهُ الشوقُ إلى رؤيةِ الوطن والعودةِ إلى الديار. . .

وعلى مشارف مكة عَسْكَرَ جيشُ التوحيد بقيادةِ محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، وارتفعتْ منه أصوات التهليل والتكبير وتلاوة القرآن.

وتعالت ألسنة النيران. . . . **وخرج أبو سفيانَ زعيمُ مكةَ يستطلع الأمر فقد هالَهُ ما يسمعُ، وأَذْهَلَهُ ما يرى!** . . . عسكرٌ ونيرانٌ، وهدير بالتهليل والتكبير، ترتج له الأرض، وتُرَدِّدُ صداه السماء، ما رأى وما سمع بمثله في حياته، فهُرِعَ إلى العباس بن عبد المطلب يسألُه عن الخبر. فيجيبه العباس: هذا رسولُ اللهِ في الناس. ثم يستطرد العباسُ قائلاً: واصباحَ الناس إذا دخل مكة! فاهتز أبو سفيان دهشة، وارتعدت فرائصُهُ اضطراباً، وأيقن أخيراً أنْ لا طاقة لقريش بهذا الجيشِ الزاحفِ الهادر.

أيقن أبو سفيان أنّ الحل الوحيد في هذا المأزق الرهيب هو الإسلام. فسارع إلى رسولِ الله ﷺ يُعْلِنُ أمامه إسلامه، ويُسْدِلُ الستار على ما مضى من كفره وعناده وطغيانه بـ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وعاد كبيرُ مكةَ أبو سفيانَ المسلم إلى ربعه وبني قومه، وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش، واللهِ لقد جاءكم محمد بن عبدالله بما لا قِبَلَ لكم به! أَلَا من دَخَلَ المسجدَ الحرام فهو آمن، ومن دَخَلَ دار أبي سفيانَ فهو آمن، ومَنْ أَغْلَقَ عليه بابه فهو آمن.

وسيطر جوٌّ من الفزع على النفوس، وخيّمتِ الرهبة على القلوب. . . وتدافع الناسُ إلى المسجد الحرام، أو أغلقوا على أنفسهم أبواب بيوتهم، تساورهم تساؤلاتٌ وتساؤلات: ما الذي سيفعله محمدٌ بهم ؟ كيف سيتعامل المسلمونَ معهم ؟ لقد دقَّتْ ساعةُ الحساب حسابِ المكابرة والعنادِ ونقض العهود، حسابِ الأراجيف والأباطيل التي بَثَّتها قريشٌ في سبيل الإسلام، حساب الشرورِ وأنواعِ الأذى والعدوان التي سامت بها المسلمين !

ووقف رسول الله ﷺ فوق ذي طُوى؛ ونظر نظرةً مَلِيّةً إلى مكة، فوجدها قد استسلمت وأسلست له قيادَها، فسجد فوق راحلتِهِ شكراً لله ربِّ العالمين.

أما بلالُ بنُ رباح فقد دَخَلَ مكة مع النبي عليه الصلاة والسلام، وراح

يملأ صدره بهوائها الحبيب، ويمتّع ناظريه بمرابعها وهي ترقص طرباً بقدوم خاتم النبيين، ويُشَنِّف مِسمعيه بتهليل إخوانه العائدين المجاهدين الصادقين.

وطاف النبي عليه الصلاة والسلام بالبيت العتيق سبعةَ أشواطٍ وهو راكب على راحلته. فلّما أَتمَّ طوافه توجَّهَ إلى بابِ الكعبة فوجده مغلقاً، فأمر بلالاً أنْ يذهبَ إلى عثمانَ بنِ طلحة لِيُحْضِرَ المفتاح. ووقف عليه الصلاة والسلام على بابِ الكعبة وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صَدَقَ وعده، ونَصَرَ عبدَه، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده.

وعاد بلالٌ رضي الله عنه ومعه عثمانُ بن طلحة، فقال له عليه الصلاة والسلام:

هاتِ مفاتيحَكَ يا عثمان. اليوم يومُ بِرٍّ ووفاء.

وفُتِح الباب، ودخل النبي عليه الصلاة والسلام وبلال وأسامةُ بنُ زيد وعثمانُ بن طلحة ثم أغلق الباب. وصلى الرسول ﷺ ركعتين في جَوْفِ الكعبة. ثم نظر إلى الأصنام فرأى من بينها صور الملائكة، ورأى إبراهيمَ مصوّراً في يده الأزلامُ يستقسم بها، فاستنكر ذلك وقال عليه الصلاة والسلام: قاتل الله المشركين، جَعَلُوا شيخنا ـ يعني إبراهيم عليه السلام ـ يستقسِم بالأزلام! ما شأنُ إبراهيمَ والأزلام؟! ثم تلا قول الله تعالى:

﴿ما كان إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً. ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[1] ثم طفق عليه الصلاة والسلام يطعن الأصنامَ بعود في يده ويقول: جاء الحقُّ وزَهَق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً.

ثم فُتِح باب الكعبة، فاندفع الناسُ إليها... ودخل أبو سفيانَ بنُ حرب

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

وَعتَّاب بنُ أُسيد والحارثُ بنُ هشام وجلسوا بفنائها.

ثم توجه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس وقد بوّأه الله أعلى مراتب النصر والمجد والسؤدد، توجّه إليهم يسألهم ويقول: يا معشر قريش ما تظنون أنّي فاعلٌ بكم ؟ قالوا: خيراً... أخٌ كريم... وأبنُ أخٍ كريم فيجيبهُم عليه الصلاة والسلام بلسان المعلم العظيم، وفكر القائد الحكيم، ومشاعر الأب الرحيم: اذهبوا فأنتم الطلقاء... فكانت هذه الكلماتُ النبويةُ الثلاثة بشرى للوجوه وسكينةً للنفوس وطمأنينةً للقلوب.

ثم أمر الرسولُ عليه الصلاة والسلام بلالاً أن يؤذّن، فقام رضي الله عنه يعتلي ظهرَ الكعبة، فنظر إليه الناس مذهولين. وراح أهلُ مكة يتساءلون: ما يفعلُ هذا العبد ؟ وكيف يَجْرُؤُ على الصعود على ظهر الكعبة، إذْ لم يعتلِ البيت المقدس أحد من قبل. وكان بعض أقارب سعيد بن العاص واقفين فتهامسوا فيما بينهم وقالوا: لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يَسْمَعَ هذا الأسود ويراه على ظهرِ الكعبة !

واتجه الناس إلى أشرافهم يستنفرونهم. فقال رجلٌ من قريش للحارث بن هشام: ألا ترى إلى هذا العبد أين صَعِد ؟ فقال الحارث: دعْه فإن يكنِ الله يَكْرَهُهُ فسيرميه ويُلقي به.. !

واستوى بلالٌ على ظهر الكعبة، وارتفع صوته عذباً رخيماً، نديّاً عميقاً، قوياً عظيماً:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر
أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أن لا إله إلاّ الله
أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

ارتفع صوتُ بلال رضي الله عنه عذباً رخيماً، نديّاً عميقاً، قوياً عظيماً، فأطرق الجميع وكأنّ على رؤوسهم الطير، وخيّم الهدوء على كل الأرجاء،

ومسّ الصوتُ صوتُ بلال وما يحمله من عبارات، مَسَّ أوتارَ القلوب فاهتزت نشوة وطرباً وإيماناً.

فأمّا صحابةُ رسولِ الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فقد ازدادوا إيماناً مع إيمانهم، وفرحوا بنصر الله واستبشروا بفضله ورضوانه.

وأما القرشيون أهل مكة الذين أَسَرَهم رسولُ الله ﷺ بعفوه عنهم، فقد شدَّهم النشيدُ، نشيدُ بلال بعدما هزّ قلوبَهم ومشاعرهم وعقولهم، فما لبثوا أن أعلنوا زرافاتٍ ووحداناً نِهاياتِ الوثنية والكفر والطغيان، وهم يرددون بألسنتهم نشيد بلال، النشيدَ العلويَّ الكبير.

الله أكبر الله أكبر
أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن محمداً رسول الله

فترده معهم أرجاء مكة، ثم ترده بعد ذلك جزيرة العرب بل ترده كل أرجاء الدنيا.

سيّدة نساء العالمين

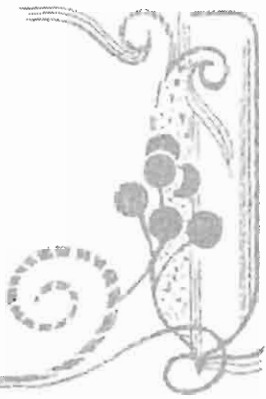

إنها فاطمة الزهراء، أبوها محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء والمرسلين حبيبُ ربه وصفوتُه من خلقه، وأمُّها خديجةُ بنتُ خويلد المسلمةُ الأولى وخيرُ نساء الأرض. وزوجها أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وابناها أبو محمد الحسن وأبو عبدالله الحسين سيّدا شباب أهل الجنة.

أيها الإخوة والأخوات

أودُّ أن أدعوكم اليوم إلى جولة نترافق فيها سوية. ولكنني أريد قبل البدء فيها أن ينظر كل واحد منا إلى ما حولَهُ. أن ينظر كلُّ واحد منّا رجلاً كان أو امرأة إلى ما في بيته من أثاث ورياش، ويتذكرَ ما في خزائنِهِ من أنواع الملابس وألوان الثياب، ويستعرض في ذهنه ما أكله بالأمس واليوم من أصناف الطعام والشراب والفاكهة والحلوى وما في نيته أن يأكله في الغد مما تحفل به الثلاجات وأجهزة تخزين المواد الغذائية في البيت أو مما سيجلبه من السوق، ويحصي عددَ العاملين في خدمته من السائقين والخدم والمربيات وغيرهم. . . ذلك أنّ هذا النظر، وهذا الاستعراض، وهذا الاستذكار، وهذا الإحصاء، من الأمور التي ستجعل لجولتنا فائدةً وجدوى !

واسمحوا لي بعد ذلك ـ أيها الإخوة والأخوات ـ أن نعود بالتاريخ معاً نيفاً وأربعة عشر قرناً. . . إلى عهد رسول الله ﷺ. . . إلى المدينة المنورة فندخلَ بيتَ فاطمةَ الزهراء ابنةِ رسولِ الله ﷺ وزوجِ عليّ بنِ أبي طالب كرّم الله وجهه فنرى ما فيه، ونتعرفَ على بعض أحوال صاحبته وسيدته.

يتألف هذا البيت من حجرةٍ صغيرةٍ واحدةٍ، تضم سريراً ووسادةً من جلد قد حُشِيَتْ بالليف. وفي هذا البيت أيضاً رَحاءان وجرتان ومنخل، ومنشفة، وسقاء. وفي هذا البيت كوّة فيها شيء من الطيب تنتشر رائحته كُلَّما لعب النسيم بأرجاء المكان. . . . هذا إذن هو جَهاز[1] فاطمةَ الزهراء رضي الله عنها، فقد كان مهرُها وهي السيدة الهاشمية العربيةُ المسلمةُ القمةُ أربع مائة وسبعين درهماً!

أما كيف كانتَ هذه المرأةُ الهاشميةُ العربيةُ المسلمةُ القمة تعيش ؟ فدعونا نتركِ الحديث عن ذلك لزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه:

يقول عليّ رضي الله عنه:

بتنا ليلةً بغير عشاء، فأصبحت فخرجت، ثم رَجَعْتُ إلى فاطمة فوجدتُها محزونة فقلت: ما لك ؟ قالت: لم نتعشَّ البارحة ولم نتغدَّ اليوم، وليس عندنا عشاء !

يقول عليٌّ رضي الله عنه:

فَخَرجْتُ فسعيت فأصبت درهماً فاشتريت به طعاماً ولحماً، فأتيتُها به فخبزت وطبخت. فلما نَضِج الطعام قالتْ: لو ذهبتَ إلى رسول الله فدعوته. قلت: سمعاً وطاعة.

يقول علي رضي الله عنه:

---

(١) جَهاز: يجوز في الجيم الفتح والكسر ـ جهاز العروس أو السفر: متاع العروس والسفر.

فذهبتُ إلى رسول الله ﷺ، فوجدتُهُ مضطجعاً في المسجد يقول: أعوذ بالله من الجوعْ، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، عندنا طعامٌ فهلمّ. فقام رسول الله ﷺ متوكّئاً عليّ حتى دخل البيت والقدرُ تفور. فقال: يا فاطمة إغرفي لعائشة. فَغَرفَتْ في صَحْفة. ثم قال: إغرفي لحفصة، فَغَرَفت في صحفة. ولم تَزَلْ كذلك حتى غرفتْ لنسائه التسع جميعهن. ثم قال عليه الصلاة والسلام: إغرفي لأبيكِ وزوجِك، فغرفتْ. ثم قال: إغرفي فكلي، فغرفَتْ.

يقول عليٌّ كرّم الله وجهه:

ثم رَفَعْتُ القِدْر، وإنها لَتَفِيضُ فأَكَلْنَا منها ما شاء الله...

وفي ذات يوم ـ أيها الإخوة والأخوات ـ دَخَلَ عليٌّ كرّم الله وجهه البيت فوجَدَ زوجتَه فاطمة الزهراء تُديرُ الرّحى بيديها وقد أنهكها التعب فنَظَر إليها مشفقاً وقال: لقد شَقَوْتِ يا فاطمة حتى أَسْلَيْتِ صدري... ما رأيُكِ أن تذهبي إلى رسول الله ﷺ، فتطلبي منه خادماً تعينُك، فقد أفاء الله على رسولِهِ بسبيٍ وأسرى. فانتظرت فاطمة رضي الله عنها بعض الوقت استردتْ فيه قواها الذاهبة، ثم قامتْ فَتَلَفَّعَتْ بِخمارها، وخرجَتْ تسعى إلى أبيها. فلّما رآها رسول الله ﷺ هَشَّ لها وبشّ، ثم سألها قائلاً: خيراً يا بُنَيّة ؟ فقالت: رضي الله عنها جئت لأسلِّم عليك ! فقد غَلَبَها الحياءَ من أَنْ تسألَه ما جاءت من أجله.

وعادتْ فاطمةُ رضي الله عنها إلى البيت لتخبرَ زوجَها أنها استحيت أَنْ تطلب من أبيها شيئاً. فَرَجَعَ بها علي رضي الله عنهما، وصَحبَها إلى رسول الله ﷺ، وعَرَضَ عنها سؤالها، وهي تستمع مطرقة من الحياء...

فلما فَرَغَ عليٌّ رضي الله عنه من مسألته. نظر إليه رسولُ الله ﷺ وقال: لا، والله لا أعطيكُما وأَدَعُ أهلَ الصُّفَّة تتلوى بطونُهم لا أجد ما أُنفقُ عليهم. ولكن أبيعُ السبيَ والأسرى وأنفقُ على أهل الصُّفَّةِ الثمن. ـ وأهلُ الصُّفّة أيها الإخوة والأخوات هم جماعةٌ من فقراء الصحابة كانوا يسكنون مسجد الرسول

عليه الصلاة والسلام ويعيشون على نفقته ـ.

وانصرف عليٌّ وفاطمة رضي الله عنهما شاكرَيْن لرسول الله ﷺ، راضيَيْنِ بقضاء الله وقدره، صابِرَيْن محتسبين ولم يَدريا أن طلبَهما ذاك مسّ القلبَ النبويّ الشريف فظل مشغولاً به طوال النهار. . .

فلما أسدل الليلُ ستورَه وأوى الزوجان إلى فراشهما الخشن يحاولان النوم ولا يجدان إليه سبيلاً، فقد كان بَرْدُ تلك الليلة شديداً، إذا برسولِ الله ﷺ يُقبل عليهما ويَطْرُقُ بابَهما فيهبان لِلقاءِ الضيف الكريم. . . فيبتدرُهما رسولُ الله ﷺ بقوله: مكانكما. . . ثم يضيف في رفقٍ قائلاً لهما ألا أخْبركما بخيرٍ مما سألتماني ؟ فقال علي وفاطمة: بلى يا رسول الله ! فقال عليه الصلاة والسلام: كلماتٌ عَلَّمَنيهنَّ جبريل؛ تسبحانِ الله عَقِبَ كلِّ صلاةٍ عشراً، وتَحْمدانه عشراً، وتكبّرانه عشراً، وإذا أَوْيتُمَا إلى فراشِكما؛ تُسبّحان الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدانِهِ ثلاثاً وثلاثين، وتكبّرانه أربعاً وثلاثين.

ألا ما أعظمَ هذا النبيَّ الأميَّ المنصفَ الرحيم! وما أكرمَ هذين الزوجين الصابرين المحتسبين! وما أروعَ هذه الوصفةَ النبوية الشريفة!

لقد كانت فاطمةُ الزهراء ـ أيها الإخوة والأخوات ـ مثالاً فَذّاً في أخلاقها وتصرفاتِها ومواجهتِها أمورَ الحياة، وكانت كذلك منارةً سامقة في طاعةِ اللهِ ورسوله، والرضى بقضاءِ الله وقدره، واحتمالِ متاعبِ الدنيا ومصاعبها.

مَرِضَتْ ذاتَ يوم مرضاً شديداً فجاءها أبوها عليه الصلاة والسلام يعودُها ويُواسِيها.

فقال لها: كيف تَجِدِينَك يا بُنَية ؟

فقالت: رضي الله عنها: إنّي لَوجِعَة، وإنّه ليزيدُني وَجَعاً، أنّي ما لي طعام آكله !

فما كان من رسول الله ﷺ، إلّا أنِ استعبر، وذرفت عيناه بالدموع . . .

ثم التفت إلى فاطمة وقال:

يا بُنَيّة: أَمَا تَرْضَيْنَ أنكِ سيدةُ نساءِ العالمين ؟ !

obeikandl.com

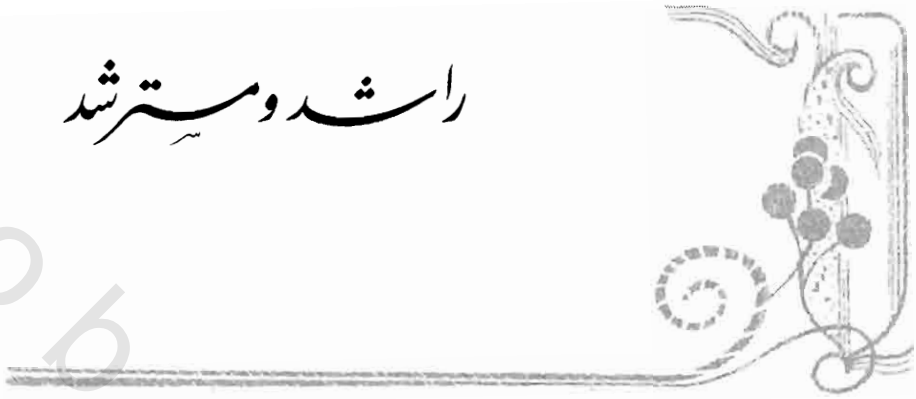

قال أبو عمران الجونيّ:

عندما تولى هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء مهنئين وناصحين، ففتح الرشيدُ بيوتَ الأموال، وأقبلَ يكافئهم بالجوائز السنية والعطايا الجزيلة... وكان الرشيد قبل ذلك يجالسُ العلماءَ والزهّاد، ويُظهرُ التعبدَ والتقشف... وكان بينه وبين الفقيه العالم الزاهد سفيانَ الثوريّ نوع من المؤاخاة... لكنّ سفيان هجر الرشيد بعد توليه الخلافة، وقاطعه ولم يعد يزورُه... فاشتاق هارونُ الرشيد إليه وإلى مجالسه وأحاديثه ومواعظه، واشتدت عليه قطيعته وهجرانُه، فكتب إليه كتاباً قال فيه:

(من عبد الله هارون الرشيد أميرِ المؤمنين إلى أخيه سفيانَ بنِ سعيدِ بنِ المنذر الثّوريّ.

أما بعد. يا أخي فقد علمتُ أنّ الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله... وأعلمُ أني قد آخيتُك مؤاخاةً لم أصرم بها حبلك ولم أقطعْ منها وُدَّك... وإني منطوٍ لك على أفضل المحبة والمودة... ولولا هذه القِلادة ـ يقصد الخلافة ـ التي قَلَّدَنيها الله، لأتيتُك ولو زحفاً، لِما أجِد لك في قلبي من

المحبة... واعلم يا أبا عبدالله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحدٌ إلّا وقد زارني وهنّأني بما صِرتُ إليه... وقد فتحتُ بيوت الأموال، وأعطيتهم من الجوائز السنية، ما فرِحتْ به نفسي، وقَرَّتْ عيني... وإنّي استبطأتُك فلم تأتِني.... وقد كتبت إليك كتابي هذا شوقاً مني إليك شديداً... وقد عَلِمْتَ يا أبا عبدالله ما جاء في فضل المؤمن وفضل زيارته ومواصلته... فإذا ورد عليك كتابي فالعَجَلَ العَجَل).

فلما فرغ الرشيد من الكتاب، أعطاه رجلاً اسمه عبّاد الطالقاني، وقال له: **يا عبّاد، خذ كتابي هذا فانطلق به إلى الكوفة، فإذا دخلتَها، فسل عن قبيلة بني ثور، ثم سل عن سفيان الثوري، فإذا رأيته فألقِ كتابي هذا إليه، وعِ بسمعِك وقلبك جميع ما يقول، وأحصِ عليه دقيقَ أمره وجليله لتخبرني به!**

فأخذ عبّاد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة، فسأل عن القبيلة فأُرشِد إليها، ثم سأل عن سفيان فقيل له تجده في المسجد...

قال عبّاد: فأقبلت إلى المسجد فإذا برجل يتوجّس مني حينما رآني فيقوم قائماً ويقول في صوت خفيض: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك اللهم من طارقٍ يَطرُقُ إلا بخير.

قال عبّاد: فوقعت كلمة هذا الرجل في قلبي... لكنه عندما رآني نزلت بباب المسجد، قام يصلي ولم يكن الوقت وقت صلاة، ونظرت فإذا جلساؤه كثير وكلهم قعود قد نكَّسوا رؤوسهم كأنّهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته... فسلَّمْتُ، فما رفع أحدٌ منهم رأسَه إليّ، وردُّوا السلام برؤوس الأصابع، وبقيت واقفاً فما منهم أحدٌ عرض عليّ الجلوس، وقد علتني من هيبتهم الرعدة؛ وقلت: لا بدّ أن المُصَلِّي هو سفيان، فرميت الكتاب إليه... فلّما رأى سفيان الكتاب ارتعد وتباعد عنه، كأنّه حيَّةٌ ظهرت له في محرابه.... فلما انتهى من صلاته أدخل يده في كمه ولفّها بعباءته، وأخذ

الكتاب فقلبه بيده، ثم رماه إلى مكان خلفه، وقال لجلسائه: يأخذه بعضكم ويقرؤه عليّ !

قال عباد: فأخذه بعضهم فحلَّه كأنه خائف من فَم حية تلدغه، ثم فضّه وقرأه. . . . فصار سفيان يتبسم تبسُّم المتعجب المستنكر وهو يستمع إلى ما احتواه الكتاب. . . فلّما فرغ القارىء، قال سفيان: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه. . . . . فقيل له: يا أبا عبدالله، إنه خليفة، فلو كتبت له في قرطاس نقي. . . . فقال: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسَّه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا. . . . فقيل له: ماذا نكتب ؟ قال سفيان: اكتبوا:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوريّ إلى العبد المغرور بالآمال، الذي سُلِب حلاوة الإيمان هارون الرشيد.

أما بعد، فإني قد كتبت إليك، لأُعلِمَكَ أني قد صرمت حبلَك وقطعتُ ودَّك، وقَلَيْتُ موضِعَك، فإنَّك قد جعلْتني عليك شاهداً بإقرارك على نفسِك في كتابك، بما هجمتَ به على بيت مال المسلمين، فأنفقتَه في غير حقّه، وأنفذته في غير حكمه. . . ثم لم تكتفِ بما فعلتَه وأنت ناءٍ عني حتى كتبتَ إليّ تُشْهدني على نفسك. . . . . ألَا إنّي قد شهدتُ عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله تعالى. . .

يا هارون. لقد هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، فهل رضي بفعلك المؤلفة قلوبُهم، والعاملون على أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيله، وأبناء السبيل ؟ أم هل رضي بذلك حَمَلة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؟ فشُدَّ يا هارون مئزرك، وأعدّ للمسألة جواباً، وللبلايا جلباباً. واعلم أنك ستقف بين يدي الحَكَمِ العدل، فقد رُزِئْتَ في نفسِك إذ

سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيذ القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً، وللظالمين إماماً...

يا هارون، قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك، ثم أقْعدتَ أجنادَك الظلمةَ دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون... يشربون الخمور ويجلدون من يشربها.... ويزنون ويَحُدُّون الزاني.... ويسرِقون ويقطعون السارق.... فكيف بك يا هارون غداً إذ نادى المنادي من قبل الحقّ تبارك وتعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجَهم﴾[1] أين الظَلَمةُ وأعوانُ الظلمة ؟ ووقفت بين يدي الله تعالى، ويداك مغلولتانِ إلى عنقك لا يَفُكُّهُما إلا عدلُك وإنصافُك، والظالمون حولك وأنت سابقٌ لهم وإمامٌ إلى النّار.....

كأني بك يا هارون، قد أُخِذْتَ بضيق الخِناق، ووردتَ المساق، ترى حسناتِك في ميزان غيرِك، وسيئاتِ غيرِك في ميزانك زيادةً على سيئاتك، بلاءً على بلاء، وظلمةً فوق ظلمة... فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها... واعلم أني قد نصحتُك وما أبقيتُ لك في النصح غاية.... فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ في أمته، وأحسن الخلافةَ عليهم... واعلم أن هذا الأمر ـ يعني الخلافة ـ لو دام لغيرك لم يصل إليك، وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزوّد زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته... وإنّي أحسبك يا هارون، ممن خَسِر دنياه وآخرته... فإياك إيّاك أن تكتبَ لي كتاباً بعد هذا، فلا إجيبَك عنه. والسلام).

قال عبّاد: فأُلقي إليّ الكتاب منشوراً غير مطويٍّ ولا مختوم، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة، وقد وقعت موعظة سفيان من قلبي موقعها، فناديت:

---

(١) سورة الصافات: الآية ٢٢.

يا أهل الكوفة... فأجابوني... فقلت لهم: من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله ؟ ! فأقبلوا عليّ بالدنانير والدراهم... فقلت: لا حاجة لي بذلك، ولكنني أريد جبةَ صوف، وعباءةً قطوانية !... قال عباد: فأحضروا لي ذلك. ونزعتُ ما كان عليّ من اللباس الفاخر، الذي كنت ألبسه... ثم قفلت راجعاً حتى أتيت باب أمير المؤمنين راجلاً حافياً بعدما وَضَعْتُ على حصاني الذي كنت أركبه ملابسي السابقة وسلاحي الذي كان معي..... فعرفني من كان على باب الخليفة وسَخِر مني..... ثم استؤذن لي، فلما دخلت على أمير المؤمنين ورآني على تلك الحالة، قام وقعد، ثم قام قائماً، وجعل يَلْطِم رأسَه ووجهه، ويدعو بالويل والحزن ويقول:

انتفع الرسول، وخاب المرسِل... انتفع الرسولُ وخاب المرسِل... ما لي وللدنيا... ما لي والملك يزول عني... ما لي والملك يزول عني...

قال عبّاد: ثم ألقيت إليه الكتاب منشوراً كما دُفِع إليّ.... فأقبل هارون يقرؤه، فصارت دموعه تذرف من عينيه، ثم صار يبكي ويشهق بالبكاء ! فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين: لقد اجترأ عليك سفيان، فلو وجَّهْتَ إليه، فأثقَلْته بالحديد، وضيَّقْتَ عليه في السجن، كنت تجعله عبرةً لغيره... ؟

فقال هارون الرشيد: اتركونا يا عبيد الدنيا... المغرور من غررتموه... والشقي من أهلكتموه... وإن سفيان أمةٌ وحده... فاتركوا سفيانَ وشأنه.

ثم لم يزل كتابُ سفيان الثوري إلى جنب هارون الرشيد، يقرؤه عند كل صلاة، حتى انتقل إلى رحمة ربه.

وبعد أيها الإخوة والأخوات

أيّ الرجلين أعظم سفيان الثوري أم هارون الرشيد ؟

إنّ كثيراً من المؤرخين يسوقون هذه القصة دليلاً على عظمة سفيان الثوري في علمه وزهده وورعه وتقواه وجرأته في قول الحق لا يخشى في الله لومة لائم، وهم على حق فسفيان الثوري رحمه الله وقدّس روحه قمة من قمم جيل التابعين الذين تسلّموا بحق وجدارة راية الإسلام من الجيل الإسلامي الأول جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار، وسيبقى سفيان الثوري بعلمه وعمله وإخلاصه وسيرته منارة لا يخبو نورها، وينبوعاً لا ينضب عطاؤه لكل مسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها...

ولكن أليس هارون الرشيد عظيماً كذلك ؟ !

الناس كل الناس يتزاحمون على بابه، ويتسابقون إلى لقائه، بل يحلمون بالاجتماع به والجلوس معه والتحدث إليه، ومع ذلك فلا ينسى صديقه القديم العالم الورع الزاهد سفيان الثوري...

الشمس لا تغيب عن مملكته، والغمام أينما أمطر لا يتجاوز حدود دولته، ومع ذلك يستمع إلى النصيحة، وتهتز أوتار قلبه لها، وتنسكب دموع عينيه، ويشهق بالبكاء.

ويحثه المنافقون على الإيقاع بسفيان الثوري وإحضاره مكبلاً بالحديد وإيداعه في غياهب السجون، فقد خرج عن حدوده في وعظه ونصيحته، فيسمعهم جواباً لم يتوقّعوه سطره له التاريخ بأحرف من نور:

أتركونا يا عبيد الدنيا. المغرور من غررتموه. والشقيُّ من أهلكتموه وإنّ سفيان أمة وحده. فاتركوا سفيان وشأنه...

ولم يكتف بهذا، بل وضع هارون الرشيد كتاب سفيان الثوري إلى جنبه يقرؤه عند كل صلاة حتى أتاه اليقين!

رحم الله سفيان الثوريّ فقد كان أمة وحده، ورحم الله هارون الرشيد فقد كان كذلك أمة وحدة.

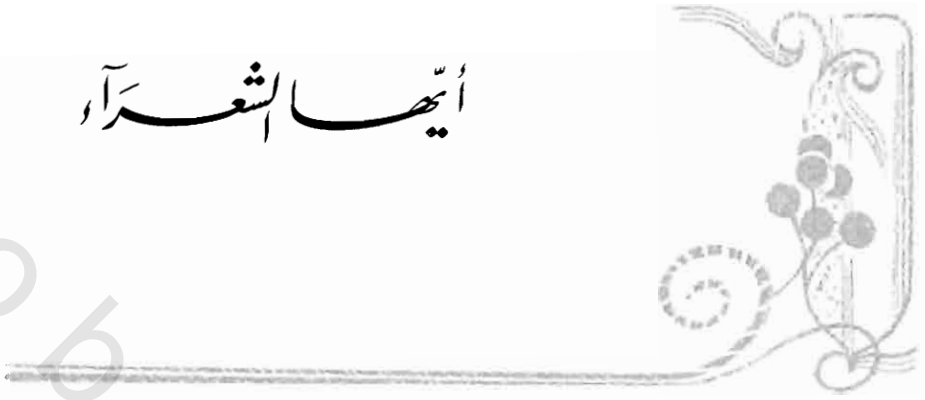

أيّها الشعراء

ما نطلبه من الشعراء اليوم، شعراءِ العربية في أقطار العروبة، وشعراء المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي كله.

ما نطلبه نحن ـ أبناء العربية ـ ، نحن ـ المسلمين ـ من شعرائنا، أن يكونوا على مستوى القضية، قضيةِ أمتهم اليوم وغداً، وعفا الله عمّا مضى. . .

المطلوب من شعرائنا أن يكبّروا أربعَ تكبيرات على أقاصيصِ الحب ولواعجِ الغرام، وأن يُسْقِطوا من دواوينهم معانيَ النوى والقرب، والوصالِ والهجر، والشوقِ والهيام.

المطلوب من شعرائنا اليوم، أن يَكْتُبُوا بالسكاكين بَدَلَ الأقلام، وأن يَنْفُذوا بأشعارهم إلى أعماقِ الصدور لا أن يَحْبِسوها في حيّز الشفاه والسطور، وأن يلوّنوا قصائِدهم بلونِ دمائهم، ويملأوها بِذَوْبِ قلوبهم، وينشروها حارّة على لهيب حرقتهم وإخلاصهم، وهم يُغَنُّون لنا من خلالها أغاني السَّبْقِ والإقدام، والصبر والإيمان، والعزيمة والجهاد.

وحينما نُطْلِقُ هذه الصيحة، ونرفَعُ هذا النداء، نتذكَّرُ شاعرَنا الكبير، وفيلسوفَنا الفذ، المفكرَ الإسلاميَّ العظيم، فخرَ الباكستانيين بل فخر المسلمين

أجمعين الدكتور محمد إقبال عليه رحمةُ الله، وجَعَلَ روحه في أعلى عليين.

لقد أحبّ إقبال حتى بلغ درجاتِ التولهِ والفناء، ولكنّ محبوبَه كان الخالقَ العظيم، بديع السمواتِ والأرضَ.

ولقد سهر إقبال وتَعَذَّب وعانى وتألّم، لكنّ سَهَرَهُ وسُهْدَهُ وعذابَه كان من أجل أمته الإسلامية، من أجل وحدتها وقوتها وفوزِها وتقدمها.

ولقد غنّى بأجمل الألحان وأحلى الأصوات، ولكنْ ليوقظَ إخوانه المسلمين في كل مكان، ويَنْفُضَ عنهم غبارَ الكسل والتراخي والنوم ويذكّرَهم بالدور الذي اختاره الله لهم في هذه الحياة والواجبِ الذي حمَّلهم إياه.

يا أيها المسلمُ إنّ الأرض والسماءَ لك
ضياؤُكَ القدسيُّ أرقى من شراراتِ الفَلَك

منزلُك العلويّ لا تَحْجُبُ صَرْحَهُ الغيوم
أنت من الجيشِ الذي غبارُ خيلِهِ النجوم

في العالَم الأولِ من مطالع الأنوارِ أنت
والناطق الأخير في رسالةِ الرحمنِ كنت

قم وانشر الإسلامَ في الدنيا ووحّد الأمم
فأنت خيرُ من دعا وأنتَ خير من حكم

● والأمة الإسلامية في نظر محمد إقبال أمةٌ عالمية لا تعترف بالحواجز والحدود، توحيدُ الله عقيدتُها، ومحمدٌ رسولُ الله هاديها ومرشدُها، والجهادُ في سبيل الله طريقُها، والفوزُ في الدنيا وحسنُ ثواب الآخرة هدفُها وغايتُها:

توحيد اللهِ لنا نورٌ أعددنا الروحَ له سَكَنا
الكونُ يزولُ ولا تُمحى في الدهر صحائِفُ سؤددِنا

بنيت في الأرض معابدها والبيت الأول كعبتنا

في ظلِّ السيف تربينا وبنينا العِزَّ لدولتنا
عَلَمُ الإسلام على الأيامِ شعارُ المجد لملتنا
قولوا لسماء الكونِ لقد طاولنا النجم برفعتنا

يا دهر لقد جرّبت على نيرانِ الشدةِ عَزمَتنا
طوفانُ الباطل لم يُغْرِقْ في الخوفِ سفينة قوتِنا

يا أرضَ النورِ من الحرمين ويا ميلادَ شريعتنا
رَوْضُ الإسلامِ ودوحتُه في أرضك روّاها دمُنا
ومحمدُ كانَ أميرَ الركب يقود الفوز لنصرتنا
إنّ اسمَ محمدٍ الهادي روحُ الآمال لنهضتنا

الصين لنا والهند لنا والعربُ لنا والكل لنا
أضحى الإسلامُ لنا ديناً وجميعُ الكونِ لنا وطنا

● وينعى إقبال على الإنسانِ المسلم أَنْ يَخشى من الموت تشبثاً بالحياة واغتراراً بمباهجها وأموالها ومتعها، فالموتُ هو البوابةُ التي يعبر منها المؤمن إلى لقاء خالقه الرحيم الرحمن، الحنّانِ المنّان. والإنسانُ الذي يخاف من الموت إنسانٌ ماتَ في قلبه الإيمان:

المؤمن الحق كان الله غايتَه والله كان لديه السمعَ والبصرا
والآن أضحى بريقُ المالِ كعبتَه وخوفُه الموتَ أفناه وما شَعَرا
سيّان في الشركِ هذا عابدٌ ذهباً يسعى إلى جمعِهِ أو عابدٌ حَجَرا
يا مؤمناً بلقاءِ الله مالك في ذُعْرٍ من الموتِ قد أَشْبهتَ مَنْ كفرا
قد عاد قلبُك مَيْتاً بين أضلعه كأنّه في حنايا الصدر قد قُبِرا
مَنْ كان يَحْسَبُ أنّ الموتَ هاويةٌ وأنه عَدَمٌ يستأصِلُ البشرا

فنـارُ آمـالِـهِ يَنْحَطُّ عُنصـرُهـا إلى التراب ويَلْقى الموتَ محتقرا

● **ويتحدث إقبال عن مبادىءِ شريعتنا العظيمة شريعةِ الإسلام**، وكيف صاغت من معتنقيها أمةً واحدة، رَفَعتْ رايات العدل والمساواةِ والعلم والسلام، وتوجَّهَتْ جحافلُها إلى كلّ أرجاء العالم، تفتح البلاد بنورِ الإسلام، وتحرر العباد من الظلم والطغيان، والجهلِ والعدوان:

نحن الـذين استيقـظت بـأذانهم دنيـا الخليقةِ من تهـاويـل الكـرى
نحن الـذين إذا دُعُـوا لصـلاتهم والحربُ تسقي الأرضَ جاماً أحمرا
جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا في مِسْمَـعِ الـروحِ الأمين فكبّـرا
(عثمانُ) مثلُ (بـلال) قام كـلاهما لـك بـالخشـوع مصَلِّيـاً مستغفـرا
العبـدُ والمـولى على قَـدَمِ التقى سَجَدا لوجهك خاشِعَيْن على الثَّرى

كنّـا جبـالاً في الجبـال وربّمـا سِرْنـا على مـوج البحـار بحـاراً
بمعـابـدِ الإفـرنـج كـان أذانُنـا قبـلَ الكتـائبِ يفتـح الأمصـارا
لم تَنْسَ إفـريقيـا ولا صحـراؤهـا سجـداتنـا والأرضُ تقـذف نـاراً
وكـأنّ ظـلَّ السيفِ ظـلُّ حـديقـةٍ خضـراءَ تُنْبِتُ عنـدنـا الأَزهـارا
لم نخشَ طـاغـوتـاً يُحـاربُنـا ولـو نَصَبَ المنـايـا حـولَنـا أسـواراً
ورؤوسُنـا يـا ربُّ فـوق أكفِّنـا نـرجـو ثـوابَـك مغنمـاً وجـواراً
نـدعو جَهـاراً لا إله سـوى الـذي صَنَـعَ الـوجـودَ وقـدّر الأقـدارا

● **وينظر محمد إقبال عليه رحمة الله في واقع أمتهِ الإسلامية** ـ وقد عاش معظم حَياته في النصف الأول من هذا القرن ـ فيجدُها أمة ضعيفة متأخرة متفرقة لا قيمةَ لها ولا وزن... ويتأمل في حالِ المسلم فيجدُه إنساناً سطحياً كسولاً يعيش على هامشِ الحياة، فلا يسعه إلّا أن يناديه بأعلى صوته وأعمقِ مشاعره:

أنت ربُّ الجنود، أنت فتى الميدان، أنت المغزى وأنت القضية

إنّ أهل السماء جُندك لو تدري استغلَّيْت هذه الجندية
ليس تدري ما في كيانِك من فَضْلٍ وشَأْنٍ وقيمةٍ ومزية
فَلَكَ الويلُ من غفولٍ قصير الطرْف يَعْمى عن الأمورِ الجلية
فإلاما تَظَلُّ عبداً لدنياك مقيماً في ذلةٍ وَبليّة
قيمةُ المسلم الأبيّ معانٍ كَتَبَتْها المشيئةُ الأزلية
فحرامٌ أَنْ يَرْخُصَ الثمن الغالي وتستعبد النفوسُ الأبية

● **ثم يهزُّ إقبال أمته الإسلامية هزّاً حينما يقارن بين ماضيها وحاضرها، لينتهي** إلى أنّ الخلاص يكمن في العودة إلى المنطلق الأول، إلى الإسلام بالعزيمة والجد والجهاد.

وَيْ كأَنْ لم تُشْرِقوا في الكائنات بهدى الإيمان والنهج الرشيد
ونَسِيتم في ظلامِ الحادثات قيمةَ الصحراء في العيش الرغيد
كلُّ شعبٍ قام يبني نهضةً وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمةً لهف نفسي كيف صرتم أمما
كلُّ من أنكرَ ذاتيته فهو أَوْلى الناس طراً بالفناء
لن يرى في الدهر قوميته كلُّ من قَلَّدَ عيش الغرباء
فكّروا في عصركم واستبقوا طالما كنتم جمالاً للعصر
واملأوا الصحراء عزماً واخلقوا مرة أخرى بها روحَ عُمَر

المُسْلِمَةُ الأولى

صحيح؛ إنّ من تَهُزُّ المهدَ بيمينها تَهُزُّ العالَمَ بيسارها!

وحق؛ إنَّ امرأةً عظيمة وراء كلّ رجلٍ عظيم!

وعينُ الصدق: (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزّ وجلّ خيراً له من زوجةٍ صالحة...)[1].

منذ حوالي أربعة عشر قرناً من الزمان، عاد محمد الأمين إلى بيته في مكة، من غار حراء، بعد تنسكٍ طويل، وخلوةٍ، وانفراد.... عاد إلى بيته مع خيوط الفجر، شاحبَ اللون خائفاً، مرتعدَ الأوصال واجفاً.... وما إن وَصَلَ إلى حُجْرةِ زوجته خديجةَ بنتِ خويلد، حتى أَحَسَّ أنّه وَصَلَ إلى المأمن، وَبَلَغَ مربعَ الهدوء والاطمئنان... عند ذلك أخذ يحدِّث زوجته بصوتٍ مرتجف عن كلِّ ما حَدَثَ له، ويُفْضي إليها بَكلِّ ما لديه من مخاوف...

وما أن انتهى محمدٌ من حديثه، وبَثَّ كلَّ مخاوفه حتى جَمَعَتْه خديجة بذراعيها، وضمّتْهُ إلى صدرها، وقالت له في سكينةٍ ويقين: **(الله يرعانا يا أبا القاسم. أَبْشر يا ابن عمّ واثْبُتْ، فوالذي نفسُ خديجةَ بيده، إنّي لأرجو أن**

---

(١) حديث نبوي شريف.

تكونَ نبيَّ هذه الأمة... والله لا يُخزيكَ الله أبداً... إنك لتَصِل الرحم، وتَصْدُق الحديث، وتَحْمِلُ الكلَّ، وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الدهر).

واتَّسَعَ صَدْرُ محمد، وهَدَأَتْ أنفاسه، واستردّ فؤادُهُ بعضَ السكون. فما هو بالكاهن، وما هو بالكاذب، وما هو بالمجنون، وها هو ذا صوتُ خديجة العذبُ الحنون يَبُثُّ في أوصالِهِ ومشاعرِهِ الثقةَ والاطمئنان.

وبحنانِ الأمِّ الرؤوم، ورِفْقِ الصديق الوفي، وعاطفةِ المحبِّ الولهان أَخَذَتْ خديجةُ بيد محمد إلى فراشِه، فلعلَّهُ يَجِدُ في النومِ ما تبتغيهِ لَهُ من السكينةِ والارتياح.

وبقيتْ خديجةُ إلى جانبه، تهدهِدُهُ بعباراتِها الحلوة، وتُسَرّي عنه بكلماتها العذبة، وتَمْسَحُ على جبينِهِ ووجهِهِ بيدها الحانية حتى استراحت عيناها به وهو يستغرق في نومه القرير..... **وعَزَمَتْ خديجةُ على أمر: إنّ الذي حَدَثَ لزوجها لا يَعْرِفُ تفسيرَهُ وتأويلَهُ في مكة من الناس إلّا رجلٌ واحد فقط هو ابنُ عمِّها ورَقةُ بنُ نوفل، فلتسارعْ إليه دون إحداث أيةِ ضجة حرصاً على راحةِ النائم الحبيب...**

لقد أراد الله عزّ وجلّ أن يُكْرِمَ بني الإنسان بالرسالة المحمدية يوم عم الظلمُ والظلامُ أرجاءَ الدنيا، وشاءت إرادته كذلك أن تنطلق خديجةُ بنتُ خويلد إلى ورقةَ بنِ نوفل والناس في مكة لا يزالون يستغرقون في نومهم قبل طلوع الشمس...

كانت الشيخوخةُ آنذاك قد فعلتْ فِعْلَها (بورقة) فَأَضعفتْ فيه الهمة، وقَوَّسَتْ منه الظهر، وهدّجت فيه الصوت... لكنّ الحديثَ حديثَ خديجةَ عن زوجها محمد، وما جرى له في غار (حراء)، شدَّ فيه أوتار العزيمة، وَدَفَق في عروقه حيويةَ الشباب، وحرّك في قلبه بواعث البهجة والمسرّة، بل شدّ عقلَه

وفكرَهُ ووجدانَه إلى حومة التأمل، فانتفض (ورقة) يهتف في حماس:

(قدوس... قدوس... والذي نفسُ ورقة بيده، لَئِنْ كُنْتِ صَدَقْتِني يا خديجة، لقد جاءه الناموسُ الأكبر، الذي كان يأتي موسى وعيسى، وإنّه لَنَبِيُّ هذه الأمة، فقولي له فَلْيَثْبُتْ).

ولم تطلبْ خديجةُ المزيد، فقد صَدَّقَ (ورقة) ما توقّعتْ، بل طارتْ مسرعةً إلى زوجها محمد، تعجّل له البشرى، وتحمل معها إليه الفرحة والمسرة.

إنه لا يزال نائماً قريراً... فلتنتظرْ ولو على أعصابها حتى يستفيق من نفسه.... وفجأةً ينتفض محمدٌ من فراشه، وتتثاقل أنفاسُه، ويتفصَّد العرقُ من جبهته، وَيَظَلُّ على ذلك فترةً قبل أن يعود إليه السكون، وتنتظِمَ منه الأنفاس، ثم يبدو كأنّه يُصغي إلى محدِّثٍ غير مرئي، ثم يتلو ببطء كأنه يستعيدُ درساً أُلقِي عليه:

﴿يا أيها المدثر. قم فأنذر. وَرَبَّك فكبِّر. وثيابك فطهِّر. والرُّجْزَ فاهجُر. ولا تَمنُنْ تستكثر. وَلِربّك فاصبر﴾[1].

واحتضنته خديجة بعدما سَكَنَ بين ذراعيها، وَحَدَّثَتْه بما أخبرها به (ورقةُ بنُ نوفل)، فَرَنا إليها بنظرةٍ تفيض بالشكر والامتنان، ثم استدار فنظر إلى الفراش وقال:

(انتهى يا خديجةُ عهدُ الراحة والنوم، فقد أَمَرني جبريل أن أُنذر الناس، وأن أَدْعُوَهم إلى اللهِ وعبادته! ولكنْ مَنْ ذا أدعو؟! ومن ذا يستجيب؟!).

فهتفتْ خديجة في لهفةٍ وحماس: أنا استجيبُ لك يا محمد، فادعني قبل

---

(١) سورة المدثر: الآيات ١ ـ ٧.

أن تدعوَ أيَّ إنسان. وإني لَمُسْلِمةٌ لك، مصدِّقةٌ برسالتِك، مؤمنةٌ بربّك. . . .

وهكذا شاء الله العليّ القدير، أن يُكْرِمَ خديجةَ بنتَ خويلد فيجعلَها رضي الله عنها أول مسلمة في تاريخ المسيرة الإسلامية المحمدية المجيدة.

وتوجه النبي ﷺ تصحبه زوجته خديجة رضي الله عنها إلى (ورقة بن نوفل). . . .

ولم يكد (ورقةُ) يرى محمداً عليه الصلاة والسلام حتى صاح من فوره: (والذي نفسي بيده، إنّكَ لَنَبِيُّ هذه الأمّة. ولَتُكَذَّبَنّ، ولَتُؤذَيَنّ، ولَتُخْرَجَنّ ولَتُقاتَلَنّ. . . ولَئِنْ أنا أدركتُ ذلكَ اليوم، لأَنْصُرَنَّ الله نصراً يَعْلَمُه) ثم أدنى رأسَه إليه، وقَبّلَ يافوخه. . . . فقال عليه الصلاة والسلام: (أَوَ مُخْرِجيّ هم ؟) فأجاب (ورقةُ): (نعم ! لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إلّا عُودي ! ليتني أكون فيها جَذَعاً. ـ أيْ شابّاً ـ ليتني أكونُ حيًّا).

وطابت نفس الرسولُ عليه الصلاة والسلام بما سمع. وعاد إلى بيته ليبدأ دعوته، ويسيرَ في طريق الكفاح والجهاد والنضال في سبيل نشرِ عقيدةِ التوحيد، وتحريرِ بني الإنسان من ظلمات الكفر والجهل والطغيان . . . . عاد عليه الصلاة والسلام لِيشرِّفَ صفحات التاريخ بصور من البطولة لا أروع! وصنوفٍ من تَحمل الشدائد لا أقسى! وألوان من الصبر على الفتن والمصاعب لا أمرّ ! فلم تكن قريشٌ لِترضى، أن يسفِّهَ محمدٌ أحلامَها! ويَعيبَ عليها دينَها! وَيُحَقِّر لها آلهتها. . . !

ووقفت المسلمة الأولى خديجةُ بنت خويلد رضي الله عنها إلى جانب زوجها النبي المختار عليه الصلاةُ والسلام، تنصرُهُ، وتَشُدُّ من أزْرِهِ، وتعينُهُ على تحمُّلِ صنوف الأذى وضروبِ الاضطهادِ سنين عدداً. فلما قُضِي على بني هاشم، وبني عبد المطلب أن يَخْرجوا من مكةَ لائذين بشِعْب أبي طالب،

بعد أن أعلنت قريشٌ عليهم حرباً مدنيةً شاملة، تقضي بمقاطعتهم في كل شؤون الحياة من بيع وشراء وزواج وغير ذلك، وسَجَّلتْ بنودَ هذه المقاطعة في صحيفةٍ عَلَّقتها في جوف الكوفة، لم تَتَرَدَّدْ خديجةُ ـ رغم أنها ليست من بني هاشم ولا من بني عبد المطلب ـ لم تتردد في الخروجِ مع زوجها وَنَبِيِّها تاركةً وراءها دارَها الحبيبة، مغنى صِباها، ومَرْبَعَ ذكرياتِها...

وأقامت خديجة رضي الله عنها في شِعب أبي طالب ثلاثَ سنوات تُعاني مع الرسول عليه الصلاةُ والسلام ومن تبعه من قومه من أهوالِ الحصار المُنْهِك، وتكافح في نفس الوقت أسبابَ الوَهَنِ الذي أخذ يَدِبُّ إلى جسدها منذ جاوزتِ الستينَ من العمر متشبّثةً بالحياة، كي تَظَلَّ إلى جانب زوجها في معركتِهِ الشرسة التي يواجه فيها بِقِلَّةٍ مؤمنةٍ عزلاء، جبروتَ الوثنيةِ العريقةِ المتأصلةِ، في جموعِ القرشيين ذوي العددِ والعُدَّةِ والأموال...

ثم فَشِلَ الحصارُ القرشي على بني هاشم وبني عبد المطلب، وعاد رسولُ الله ﷺ، وعادت معه خديجةُ إلى بيتهما في مكة... عادتْ خديجةُ رضي الله عنها مِنْ شِعْبِ أبي طالب عليلة الجسم منهكةَ القُوى فقد نال منها الإعياء واستَنْفَدَ الاضطهادُ والعذاب ما تبقّى لديها من قوةٍ في عامها الخامسِ والستين...

ولازمتْ فراشَها ثلاثة أيام وزوجُها الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جانبها لا يفارِقُها لحظةً من ليل أو نهار... **ثم شاءَ الله سبحانه وتعالى لخديجة بنت خويلد أن يختارها إلى جواره وأن تُسْلم الروح بين يَدَيْ زوجها ونبيّها، الرجل الذي أحبَّتْهُ منذ التقت به أولَ مرة، ثم صَدقتْهُ وآمنتْ برسالته وَنَصَرتْ دعوته منذ أنْ أكرمَهُ الله بالوحي وحتى النَّفَسِ الأخير من حياتِها رضي الله عنها.**

قال ابن إسحق: وتتابعتْ على رسولِ الله ﷺ المصائبُ بموتِ خديجة. وكانتْ له وزيرَ صدقٍ على الإسلام...

لكنّ خديجةَ رضي الله عنها لم تَمُتْ ـ أيها الإخوة والأخوات ـ إلّا وقد ذاعتِ الدعوةُ الإسلامية، وجاوزَ صيتُها مكة إلى أطراف الحجاز، ثم إلى ما وراءَها من بلادِ العرب، وَحَمَلَتْها فئةٌ مِنْ صحابةِ الرسول عليه الصلاة والسلام عَبْرَ البيدِ والبحارِ إلى الحبشة، مهاجرينَ بدينهم، تاركين وراءَهم أهلَهم وديارهم، عارضين على الدنيا خارجَ الجزيرة، مشاهدَ من الإيمانِ الباذلِ الصابر، مالئين الأسماعَ والقلوب بالأحاديثِ المثيرة عن لذة الكفاح وأمجادِ التضحية، وبطولاتِ الاستشهاد.

لم تمتْ خديجةُ رضي الله عنها إلّا وفي (يثرب) أنصارٌ للرسول عليه الصلاة والسلام، يتحفَّزون إلى تلبية الداعي الكريم، وأقصى أمانيهم أن يأتي إليهم ويخوض بهم المعركة الفاصلة النبيلة، ليفوزوا بعدها وعلى مرّ الأيام بفرحةِ الاعتزاز بالنصر، أو فخار الموت في سبيل الله.

وتمرُّ الأيامُ ـ أيها الإخوة والأخوات ـ فيشهَدُ بيتُ النبي عليه الصلاة والسلام عائشةَ بنتَ أبي بكر رضي الله عنها في غُرَّةِ صباها، ونُضْرة شبابها وحُبِّ الرسول عليه الصلاةُ والسلامُ لها، تشغلُها الغيرةُ من خديجة، تلك الضَّرّةِ التي سَبَقَتْها إلى قلبِ النبي عليه الصلاة والسلام، واستأثرتْ به وحدها حتى يومِها الأخير، ثم ظَلَّتْ بعد موتِها حيثُ كانت من قلبِ الرسولِ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه...

ففي ذاتِ يوم أقبلت (هالة) أُخْتُ خديجة رضي الله عنهما لزيارة المدينة، وسَمِعَ عليه الصلاة والسلام صوتَها في فِناء بيته، وكان يشبِهُ صوتَ العزيزةِ الراحلةِ خديجة، فَهَتَفَ عليه الصلاةُ والسلام قائلاً: اللهم هالة! فما ملكَتْ عائشة رضي الله عنها نفسَها من أن تقول للرسول عليه السلام: (أَمَا تزال تذكر عجوزاً من عجائزِ قريش، حمراءَ الشدقين، هَلَكَتْ في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها ؟!).

فتغيّر وَجْهُهُ عليه الصلاة والسلام وَزَجَر عائشةَ غِاضباً وقال لها: (واللهِ ما أبدلني الله خيراً منها؛.. آمنتْ بي حينَ كَفَر الناس، وصَدَّقتْني إذ كذّبني الناس. وَواسَتْنِي بمالها إذْ حَرَمَنِي الناس. وَرَزَقني الله منها الولدَ دونَ غيرِها من النساء).

obeikandl.com

من أحسن الوصايا

● **قال الصحابي الجليل معاذُ بن جبل رضي الله عنه:**

علّمني رسولُ الله ﷺ عَشْرَ كلمات:

- لا تُشْرِكْ بالله شيئاً وإن قُتِلْتَ وإنِ حُرِّقْت.
- ولا تَعُقَّنَّ والديك وإنْ أَمَراكَ أَنْ تَخْرُجَ مَن أهلِك ومالِك.
- ولا تَتْرُكَنَّ صلاةً مكتوبةً متعمِّداً؛ فإنَّ مَنْ تَرَكَ صلاةً مكتوبةً متعمِّداً بَرِئت منه ذمَّةُ الله.
- ولا تشربَنَّ الخمر؛ فإنها أصلُ كلِّ فاحشة.
- وإياكَ والمعصية؛ فإنّ بالمعصيةِ حَلَّ سَخَطُ الله.
- وإيّاك والفرارَ من الزحف وَإِنْ هَلَك الناس.
- وإذا أصاب الناسَ مَوْتٌ وأنت فيهم فاثبتْ.
- وأنفِقْ على أَهْلِك مِنْ طَوْلِكِ.
- ولا ترفعْ عصاك عنهم أَدَبًا.
- وأَخِفْهم في الله.

● **وقال سفيان الثوري رضي الله عنه.**

عشرةُ أشياءَ من الجفاء:

obeikandl.com

- رجلٌ يدعو لنفسه، ولا يدعو لوالديه، ووليّ أمره، وإخوانه المؤمنين والمؤمنات.
- ورجلٌ يتعلّم القرآنَ ولا يقرأ منه كلَّ يومٍ مائة آية.
- ورجلٌ دَخَلَ المسجد وخرج، ولم يصلّ ركعتين.
- ورجلٌ يَمُرُّ على المقابر ولا يُسَلِّمُ على أهلها، ولا يدعو لهم.
- ورجل دَخَلَ المدينة يوم الجمعة، ثمّ خَرَجَ ولم يُصَلِّ الجمعة.
- ورجل نَزَلَ في مَحَلَّتِه رجلٌ عالم ولم يذهبْ ليتعلمَ منه شيئاً من العلم.
- ورجلان ترافقا ولم يسألْ كلُّ واحدٍ منهما عن اسمِ صاحبه.
- ورجل دعاه صديقُهُ إلى ضيافته، فَوَعَدَهُ ثمّ لم يذهبْ إلى الضيافة.
- ورجلٌ ضَيَّعَ شبابَهُ ولم يطلب العلم والأدب.
- ورجلٌ شبعان وجارُه جائعٌ، ولا يُعطيهِ من طعامه.

● **وقال الإمامُ جعفر الصادق رضي الله عنه.**

- الصلاةُ قُربانُ كلّ تقي.
- والحجُّ جِهادُ كلِّ ضعيف.
- والصيامُ زكاةُ البدن.
- والداعي بلا عمل، كالرامي بلا وَتر.
- استنزِلوا الرزقَ بالصدقة.
- وحصِّنوا أموالَكم بالزكاة.
- كونوا للقرآن تالين.
- وللسلامِ فاشين.
- وللمعروف آمرين.
- وعن المنكر ناهين.
- ولمن قطعكم واصلين.

- ولمن سَكَتَ عنكم مبتدئين.
- ولمن سَأَلَكُمْ مُعطين.
- وإياكم والنميمة، فإنها تَزْرَعُ الشحناءَ في القلوب.

● **وكتب الإمام الشعراني رحمه الله إلى بعض إخوانه يقول؛**

- إتّبعوا ولا تبتدعوا.
- وأطيعوا ولا تمرُقوا.
- ونزّهوا ربَّكم عن كونِهِ تعالى ينساكم بلا رزقٍ ولا تَتَّهموا
- وصدِّقوه ولا تَشُكُّوا.
- واصبروا على شدائد هذه الدار ولا تَجْزَعُوا.
- واثْبُتُوا على ذلك ولا تَمَلُّوا.
- واسْعَوْا من أجل معاشكم ولا تسأموا.
- وانتظروا فَرَجَ الله لكم عند البلايا ولا تيأسوا.
- وتآخَوا على الصَّفَاءِ ولا تتباغَضُوا.
- واجتمعوا على مجالسِ الخير ولا تتفرقوا.
- واسهروا فيها ولا تناموا.
- وطهِّروا صحائِفَكم من الذنوبِ ولا تتدنسوا.
- وتزيَّنُوا بطاعةِ ربكم وعن بابه لا تبرحوا.
- وتوبوا إلى الله بعد كل ذنـبٍ ولا تسوِّفوا.
- واعتذروا إلى ربِّكم ولا تَغْفُلُوا.
- واعملوا مخلصين بما تعلمون ولا تتكاسلوا.
- وعن نفوسِكم لا ترضَوْا.

● **وقال الإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله:**

عَشَرة أشياءَ ضائعةٌ لا يُنْتَفَعُ بها:

- علمٌ لا يُعْمَلُ به.
- وعَمَلٌ لا إخلاصَ فيه ولا اقتداء.
- ومالٌ لا يُنْفَقُ منه؛ فلا يَسْتَمْتِعُ به جامِعُه في الدنيا، ولا يُقَدِّمه أَمامَه إلى الآخرة.
- وقلبٌ فارِغٌ من محبةِ اللهِ والشوقِ إليه والأُنس به.
- وبدنٌ مُعَطَّلٌ من طاعةِ الله وَخِدمتهِ.
- ومحبةٌ لا تتقيدُ برضاءِ الله وامتثالِ أوامره.
- ووقتٌ مُعَطَّلٌ عن اغتنام برٍّ وقربةٍ إلى الله.
- وفكرٌ يَجُوْلُ فيما لا ينفع.
- وَخِدمةُ مَنْ لا تُقَرِّبُكَ خدمتهُ إلى الله، ولا تعودُ عليك بصلاحِ دنياك.
- وَخَوْفُك ورجاؤُك لِمَنْ ناصيتُهُ بيدِ الله، وهو أسيرٌ في قبضته، وَلا يَمْلِكُ لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

● **وقال بعض الصالحين:**

يا ابنَ آدم.

- إذا عَرَضَتْ لك الدنيا، فاذكرِ الموت.
- وإذا وَقَعْتَ في الذنوبِ، فاذكرِ التوبة.
- وإذا كَسَبْتَ المال، فاذكرِ الحساب.
- وإذا جَلَسْتَ إلى الطعام، فاذكر الجائع.
- وإذا ادَّعت نفسُك القدرةَ على ضعيف، فاذكرْ قُدرةَ اللهِ عليك.
- وإذا مَرِضْت، فعالج نفسَك بالصدقة.
- وإذا أصابتْك مصيبة فقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

● **وقال سويدُ بنُ الحارثِ الأَزْديّ رضي الله عنه:**

وَفَدْتُ وقومي على النبي ﷺ.

فقال لنا: ما أنتم ؟

قلنا: مؤمنونَ يا رسول الله ؟

فتبسمّ النبيّ عليه الصلاة والسلام وقال: إنّ لكل قولٍ حقيقة، فما حقيقةُ إيمانكم ؟

قلنا: خمسَ عَشْرةَ خصلة؛ خمسٌ منها أَمَرَتْنا رُسُلُكَ أن نؤمن بها، وخمسٌ أَمَرَتْنا أن نَعْمَلَ بها، وخمسٌ تخلَّقْنا بها في الجاهلية، فنحنُ عليها إلاّ أن تَكْرَهَ منها شيئاً.

فقال عليه الصلاة والسلام: ما الخمس التي أَمَرَتْكم رسلي أن تؤمنوا بها ؟

قلنا: أَمَرَتْنا أن نؤمن بالله، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، وبالبعث بعد الموت.

قال: فما الخمسُ التي أَمَرَتْكم رسلي أن تعملوا بها؟ قلنا: أن نقول لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، ونقيمَ الصلاة، ونؤتيَ الزكاة، ونصومَ رمضان، ونَحِجَّ البيتَ إن استطعنا إليه سبيلاً.

قال: فما الخمسُ التي تخلَّقْتُم بها في الجاهلية ؟

قلنا: الشكرُ عند الرخاء، والصبرُ عند البلاء، والرضى بُمرِّ القضاء، والصدقُ في مواطنِ اللقاء (أي عند الحرب) وتَرْكُ الشماتة بالأعداء.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

حكماءُ علماء كادوا من فِقْههم أن يكونوا أنبياء.

ثم قال: وأنا أَزِيْدُكم خمساً فيتم لكم عشرونَ خصلة:
إن كنتم كما تقولون.

فلا تَجْمَعوا ما لا تأكلون.
ولا تَبْنوا ما لا تسكنون.
ولا تَنافَسُوا في شيء أنتم عنه تزولون.
واتقوا الله الذي إليه تُرجعون وعليه تُعْرضون.
وارغَبُوا فيما عليه تقدمون وفيه تُخَلَّدُون.

obeikandl.com